الموشحات الاندلسية

اختراعها ، اغراضها ومعانيها ، لغتها ، تأثيرها

بقلم الاستاذ بطرس البستاني

الموشحات فنّ جديد في شعر المتقدمين ، استنبطه اهل الاندلس وسموه موشحاً لما فيه من الصنعة والتزيين ، فكأنهم نظروا الى وشاح المرأة وما فيه من ترصيع وتكريس[1] وتفصيل فشبهوه به في اسماطه وابياته واقفاله.

ولابن سناء الملك تعريف ضافٍ بالموشحات في كتابه « دار الطراز » ، يستخلص منه ان الموشح يتألف في الاكثر من ستة اقفال وخمسة ابيات ، ويقال له «التام». وربما تألف من خمسة اقفال وخمسة ابيات وقيل له «الاقرع». والتامّ ما ابتدئ فيه بالاقفال ، والاقرع ما ابتدئ فيه بالابيات.

والاقفال اجزاء مؤلفة يلزم ان يكون كل قفل منها متفقاً مع سائرها في وزنه ، وقوافيه ، وعدد اجزائه ، كقول ابن الخطيب :

جادك الغيث ، اذا الغيث همى ، يا زمان الوصل بالاندلس !
لم يكن وصلك إلّا حلما في الكرى ، او خلسة المختلس

فهذا القفل يتردّد ما يشابهه وزناً ، وقافيةً ، وعدد اجزاء ، ست مرات في الموشحة لانها تامة.

والابيات اجزاء مؤلفة يلزم ان يكون كل بيت منها متفقاً مع سائر ابيات الموشح في الوزن وعدد الاجزاء ، لا في القافية ، كقول ابن الخطيب ، بعد القفل الذي اوردناه :

---

١) التكريس : ان ينظم اللؤلؤ والمرز في خيط ثم يضما مفصولين بخرز كبار.

اذ يقود الدهرُ اشتاتَ المنى ، تتفل الخطو على نرسُمُ
زُمَرًا بين فُرادى وثُنا ، مثلما يدعو الحَجيجَ الموسمُ
والحيا قد جلّل الروضَ سَنا ، فتثورُ الزهر فيه تبسمُ

فهذا البيت يتردّد في سائر الموشحة خمس مرات بوزنه وعدد اجزائه ، ويختلف في قافيته.

والقفل الاخير في الموشحة يقال له « الخرجة » ، وشرطها ان تكون عامية غير معربة الا في المدح. فتقال العامية :

انا قولْ ذُوقُو ليس بافْ تَذُوقو

واكثر ما تُحمل على السن الجواري ، والغلمان ، والسكارى . وربما جاءت على السن الحيوان ، والطير ، والاشياء المعنوية ، كالحب والحرب.

والموشحات منها ما جاء على اوزان العرب ، ومنها ما خالفها. فاما الموزون فيعده اصحاب الصنعة مرذولًا الا اذا اختلفت قوافي قفله كما في موشحة ابن الخطيب . وقد تكون اقفال الموشح موافقة لابياته في الوزن ، وقد تكون مخالفة لها.

اغراضها

قال ابن خلدون في مقدمته : « واما اهل الاندلس ، فلما كثر الشعر في قطرهم ، وتهذّبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التنميق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فنًا سموه بالموشح.» اه

وقال ايضاً : « وكان المخترع له بجزيرة الاندلس مقدّم بن معافر الفريري من شعراء الامير عبدالله بن محمد المرواني. واخذ ذلك عنه ابو عبدالله احمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد . ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر ، وكدت موشحاتهما . فكان اول من برع في هذا عُبادة القزّاز ، شاعر المعتصم بن صُمادح صاحب المَرِيّة.» اه.

فيتبين من كلام صاحب المقدمة ان الموشّحات ظهرت بالاندلس في القرن

الثالث الهجرة ، لان خلافة الامير عبدالله بن محمد ، كانت من سنة ٢٧٥ الى ٣٠٠ هـ (٨٨٨ — ٩١٢ م) . على انه لم يصل الينا شيء من موشحات مقدّم ابن معافر مخترع هذا الفنّ ، ولا من موشحات ابن عبد ربه لان موشحاتهما كسدت واهملت ولم يرووها الناس . واقدم ما وصل الينا ما جاءنا عن عبادة القزّاز المتوفى سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣٠ م) وهو قوله :

بدر تمّ شمس ضحى غصن نقا ملك شمّ
ما اتمّ ما اوضحا ما ارقا ما اتمّ

وفي ديوان ابن المعتز العباسي موشّحة لطيفة ، لو صحّت نسبتها اليه ، لما بقي فضل اختراع هذا الفنّ لاهل الاندلس . لان ابن المعتز كان معاصراً لمقدّم ابن معافر . ومقدّم كسدت موشحاته لثالثتها ، وابن المعتزّ خلدت موشحته لجودتها . غير اننا نشك في صحة نسبتها اليه ، لاسباب : منها ان مؤرخي ابن المعتزّ لم يذكروه في عداد الوشّاحين ، ولا ذكروا موشحته هذه . ومنها ان هذه الموشحة رويت لشاعر آخر يقال له الحفيد بن زهير ولعله اندلسي[1] . ومنها ان ديوان ابن المعتز لا يحتوي غير هذه الموشحة . فلو عرف صاحبه فنّ التوشيح لاكثر منه لانه يتلاءم مع اغراضه التي اختص بها ، كوصف الطبيعة ، ومجالس اللهو والشراب . ومنها انه لم تروَ موشحة لشاعر مشرقي غير ابن المعتز في العصر العباسي الثاني . ولا رويت موشحة لشاعر في العصر الثالث . ومنها ان المؤرخين اتفقوا على نسبة الموشحات الى اهل الاندلس لانها من مستنبطاتهم ، ولم يذكروا مشرقيًا في الوشّاحين قبل ابن سناء الملك المصري من شعراء العصر العباسي الرابع . فهذه الاسباب تعزز شكنا في موشحة ابن المعتزّ ، وتعزز اعتقادنا ان الشرق لم يعرف هذا الفنّ الا في اواخر الاعصر العباسية ، بعد ان شاع وازدهر

١) رويت للحفيد بن زهير كما رويت لابن المعتز في كتاب « العذارى الغانيات في الازجال والموشّحات » ، لجامعه فيليب غدان المغازن . ولعله الحفيد بن زُهر . لان ابناء زهر اشتهروا في الاندلس بعلومهم وآدابهم . ولاسيما ابو بكر بن زهر الذي شرّقت موشّحاته وغرّبت كما يقول ابن خلدون . وقد ورد اسمه محرّفًا من زهر الى زهير في مقدمة ابن خلدون ، وفي العذارى الغانيات . فلا يبعد ان يكون وقع هذا التحريف على الحفيد ايضاً .

في الاندلس ، وظهر امثال عبادة القزّاز ، وابي بكر بن زهر ، وابن بَقيّ ، والاعمى التُطيلي ، وابن باجه ، وسواهم من الوشّاحين المشهورين.

ولم يحدث هذا الفنّ الجديد دون ان يلقى مقاومة ، وانكاراً ، فان جماعة المحافظين على القديم تجهموه ، وعدّوه خروجاً على الاصول ، وضعفاً ، وعابوا اصحابه ولكن سيله طما وطغى واجترف مقاوميه.

ولا بدّ من القول ان الخروج على نظام الشعر ظهر عند المشارقة في صدر الدولة العباسية . فان بعض الشعراء اخذوا ينظمون الفنون العلمية والقصص الطويلة مزدوجات اذ لا يستطاع نظمها على قافية واحدة ؛ كما فعل أبان بن عبد الحميد في كليلة ودمنة . ونظموا ايضاً المسمّطات والمخمسات كما فعل قُطرُب في مثلثاته . غير ان فحول الشعراء تحاموا هذه الانواع ، ورأوا فيها عجزاً ، وضيقاً . وآثروا التزام القافية الواحدة ، الا بشاراً وابن المعتز . فقد ذكر ابن رشيق ان الاول كان يصنع المخمسات والمزدوجات عبثاً واستهانةً بالشعر . واما الثاني فصنع مزدوجة في ذم الصبوح ، واخرى في سيرة المعتضد.

وسرى فنّ المسمّطات والمزدوجات من الشرق الى الغرب كما سرى غيره من الفنون والعلوم . فنظم فيه شعراء الاندلس فعلّ ابن عبد ربه في مزدوجته التي ذكر بها غزوات الخليفة الناصر . والاندلسيون اسرع الى الخروج على القديم من المشارقة ، لان الشرق مهد العربية ، وطلل البادية ؛ لا ينفك البدو يختلفون الى امصاره ، وابناء الامصار يختلفون الى باديته . فروح العروبة فيهم ارسخ واقوى ، مهما غلوا في تجديدهم ، وافرطوا في انكار قديمهم . واما الاندلس فلم تكن قرارة العرب قدماً ؛ وهي من شمالها محاطة بدول نصرانية اعجمية ، ومن جنوبها بقبائل بربرية مغربية . ولولا اعراق بعض الاسر الاندلسية في العروبة ، ومناصرة الملوك للادب والادباء ، وشغفهم برواية الشعر الجاهلي ، وتردّدهم في الشرق ، وتردّد المشارقة في بلادهم ؛ لما رسخت ملكة الفصاحة هنالك . وخصوصاً ان العرب الذين نزحوا الى الاندلس اكثروا من الزواج بالنساء الاسبانيات ، وسواهن من الاوربيات ، فولدن لهم اولاداً يعتلج في عروقهم الدم الشرقي والغربي ، فكانت لهم عادات وطباع وازياء وفنون

يختلفون بها عن عرب المشرق جدّ الاختلاف ، ويقتربون بها من النصارى الاسبانيين كل الاقتراب.

وقد ظهر اثر هذا الاختلاط في استعراب النصارى واليهود من اهل الاندلس، واتقانهم لغة الضاد وآدابها. وفي طراز بنائهم المستعرب (mozarabe) وفي انتشار العلوم الدخيلة بالممالك الاسبانية ، وفي استعمال الحروف العربية ببعض ولاياتها ، ويسمون ذلك عندهم بالادب الاعجمي (Litteratura aljamiada) . ثم في اتخاذ المسلمين ازياء النصارى ، فقد ذكر صاحب « نفح الطيب » ان الاندلسيين العرب غلب عليهم ترك العمائم ، فكان عزيز بن خطّاب ، اكبر عالم في مُرسية يخطب في حضرة السلطان وهو حاسر الرأس . وكان ابن هُود ، وابن الاحمر ، يدون عمامة ايضاً . وكثيراً ما كان سلاح السلاطين والجنود كسلاح النصارى ، واقبيتهم كاقبيتهم . واثرت العجمة في لغة التخاطب عندهم ، فانحرفوا بها عما تقتضيه الاوضاع العربية ، حتى اذا تكلم احدهم بالاعراب ، وجرى على قوانين النحو ، استكفلوه واستبردوه[1] .

وكذلك الغناء اثر فيه اختلاط العرب بالاسبانيين تأثيراً بليغاً ، واثر ايضاً في الشعر الذي يتغنى به . وكانت مجالس الطرب في الاندلس على انتشار عظيم ، وانعقاد مستمرّ . فان جمال الاندلس وخصبها ، وغنى اهلها ، من دواعي اللهو والعبث . ولا شيء ادعى الى اللهو من الغناء والطرب . فلا غرو ان يشيع هذا الفن ، وتكثر مجالسه ، ويعظم قدر المغنين . وحسبك ان تعلم كيف احتفى عبد الرحمن الثاني بزرياب ، لتتبين منزلة الغناء والمغنين.

ولا ريب ان لزرياب يداً طولى في رفع شأن الغناء بالاندلس لما ادخل عليه من التحسين . قال فيه ابن خلدون : « فاورث بالاندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه الى ازمان الطوائف ، وطما منها باشبيلية بحر زاخر » اه

---

(١) راجع ، في هذا البحث ، ما نشره الاب لامنس عن « لغة مسلمي الاندلس » ، في « المشرق » (٢٦ [١٩٢٨] ١٠٣- ١٠٨) .

ولم يكن للاسبانيين موسيقى راقية قبل الفتح الاسلامي . فلما افتتحت الاندلس ، وانتشر الغناء العربي ، تهذبت موسيقاهم ، واصطبغت بالوان عربية بيّنة . منها انهم اتخذوا الشبّابة من آلات الغناء وهي عربية الاصل . ولهم اناشيد يسمونها بالزجل (segrel) ، وهي مأخوذة عن الزجل العربي . وعندهم طرب بمعنى الف الالحان ، وطروب بمعنى مؤلف الالحان . وعندهم ربع صوت ، وثلث صوت . واجزاء الاصوات عربية لا يستعملها في اوربة غير الاسبانيين . وتقاطيعهم الصوتية تجري على نغم واحد كالتقاطيع العربية . ومن الفاظهم ما يراجع في الغناء غير مرة كما يراجع لفظ « يا ليل » في الغناء العربي .

وكان الادب الاسباني قبل دخول العرب رومانيًا يتعهده الرهبان في اديارهم منذ القرن الخامس للمسيح ، ولكنه لم يشمل طبقات الشعب كلها لان العامة لم تتأثر بالعلوم اللاتينية الراقية ، وانما كان منها شعراء ومغنون لهم ادب شعبي خاص ، لا يختلف ، فيما نرى ، عن ادب عامة القالين لما بين الامتين من الاتصال ، ولما كان لجماعات الجنكلير من يد في نشر هذا الادب .

وجماعات الجنكلير عُرفوا في غالية بين القرن السابع والثامن ، وكانوا يطوفون البلاد رجالًا ونساء يتغنون باناشيدهم . واناشيدهم منها حماسية ، ومنها غرامية ، ومنها قصص نثرية . وليست هذه الاغاني شعرًا صحيح الاوزان ، مطّرد القوافي ، وانما هي مقاطع لا ضابط لها ، وربما اتحدت في اواخرها الصوتية اتحادًا غير ملتزم .

فاما ، وقد علمنا ما كان بين العرب والاسبانيين من الامتزاج القوي في السكنى والزواج والبناء واللغة والمأكل والازياء والغناء ، فغير عجيب ان يشمل هذا الامتزاج الادب ، فيسمع العرب اناشيد الجنكلير ، فتنبههم في القرن التاسع الى استنباط اناشيد للغناء طليقة القوافي والاوزان سموها بالموشحات . وكان لهم من مزدوجاتهم ومخمساتهم سابقة في الخروج على القافية الموحدة ، غير انهم لم يتخلوا منها اصلًا لتعودهم اياها . ثم لانها عنوان رقي شعرهم . فجاءت موشحاتهم مختلفة الاوزان والقوافي شاذّة عن النظام الشعري المألوف .

ودليلنا على ان العرب استنبطوا الموشحات من اجل الغناء هو انهم كانوا يراعون فيها التلحين مطلقاً وان افضى الى افساد التعبير . قال ابن سناء الملك : « والموشحات تنقسم من جهة اخرى الى قسمين : قسم يستقل التلحين به ولا يفتقر الى ما يعينه عليه ، وهذا اكثرها . وقسم لا يحتمل التلحين ، ولا يمشي الا بان يتوكأ على لفظة لا معنى لها تكون دعامة للتلحين وعكازاً المغني كقول ابن بُقي :

مَن طالبٌ ثار قَتلى ، ظَبيات الخُدُوجْ ، فَتَانات المَجيجْ

فان التلحين لا يستقيم الا بان يقول: لا لا بين الجيمين من هذا القتل» اهـ. وكذلك لا لا تُستلذ رنة الموشح الذي يخالف الاوزان الشعرية الا اذا غني فيه لانه خلق للغناء لا للانشاد.

اما اغاني الجنكليز ، فليس بين ايدينا شيء منها فنقابله بالموشحات . وانما نعتمد على اناشيد التروبادور التي ظهرت بجنوب فرنسة في القرن العاشر . وكان اصحابها يقصدون القصور ، ودور الملوك ، ومواسم الاعياد ، يتغنون بها ، او يغني لهم فيها جماعة الجنكليز . وهي تتناول اغراضاً شتى كالغزل ووصف الطبيعة ، والمدح والهجاء ، والقصص . واغراض الموشحات يقوم معظمها على الغزل والطبيعة والمدح . واناشيد التروبادور غنائية منسجمة الالفاظ حسنة التوقيع غير انها ضعيفة الميزة الادبية في معانيها المزيلة ، واغراضها المكررة . ولها اسباط واجزاء لا تتوافق اوزانها احياناً ، ولا تلتزم فيها القافية كما تلتزم في الشعر . وانما تلتزم في كل ثلاثة اجزاء او ستة ، وفي نهاية كل سمط ، ويراعى في التزامها الوزن الذي وردت فيه اولاً . فهي من هذا القبيل اشبه شيء بالموشحات.

ونهضت اناشيد التروبادور في القرن الحادي عشر وهو الزمن الذي نهضت فيه الموشحات . ولكن لم يصل الينا منها الا منذ منتصف القرن الثاني عشر ، في حين انه وصلت الينا موشحات منذ القرن الحادي عشر.

فاتفاق منظومات التروبادور والموشحات في اكثر النواحي يحملنا على

الاعتقاد ان العرب تأثروا بالادب الاسباني الفرنسي[1] ، كما تأثر الاسبانيون والفرنسيون بالادب العربي، فاخذ العرب فكرة التحرّر من الاوزان في اغانيهم، واخذ اولئك القافية والصور الخيالية الجميلة.

فالموشحات اذاً ، ليست بعربية بحتة، انما هي مستعربة « mozarabe » ، كأهل الاندلس ، وما في الاندلس من فنون وعادات وازياء . وكانوا في بدء نشأتها يُحلونها بالالفاظ الاعجمية كما ذكر ابن بسّام في « الذخيرة ».

اغراضها وصفاتها

فاما وقد علمنا ان الموشحات اخترعت من اجل الغناء فلا غرو ان تكون اغراضها في اول الامر مناسبة لهذا الفن ، فما يُنظم فيها غير الغزل والخمر والمجون ووصف الطبيعة . واتبعوا بها المدح لان ايها مجالس الغناء كانت تُعقد في قصور الملوك والامراء . والتغني بمناقبهم عدَّة التكسُّب للشاعر والمغني معاً. ثم توسعوا فيها الى سائر اغراض الشعر كالهجو، والرثاء، والزهد، والتصوف.

واكثر ما نظمت فيه الموشحات ما اجتمع به الغزل والطبيعة والخمر والمدح . وربما استهلّوا بالغزل ، وانتقلوا الى المدح ثم رجعوا الى الغزل فجعلوه ختاماً للموشح.

على انه مهما تعددت اغراض الموشحات ، فللطبيعة النصيب الاوفر ، فاهل الاندلس اشغف الناس بطبيعة بلادهم ، لا يفترون عن ذكرها في توشيحاتهم كما لا يفترون عن ذكرها في اشعارهم . وهي في الموشحات اشمل واظهر. فما تقرأ موشحة لهم الا رأيت الطبيعة ماثلة بالوانها واصباغها ، وازهارها

---

١) غلبت الصبغة الفرنسية على الادب الاسباني الشبي لتقرّب عنصره الى الاندلس مع التجار اليهود خاصة . ثم مع المرسلين الكاثوليكيين الذين جازوا البيرنه ، وانشأوا الديورة الكبار تضم اولاد الفقراء ، ويلعبهم فيها اساتذة فرنسيون . وقد درس المؤلف غستون پاري صلة الادب الفرنسي بالادب الاسباني . ودلّ بحجج راهنة على تأثير الاول في الثاني حتى قال: « ان الادب الاندلسي في اول عهده هو فصل من تاريخ الادب الفرنسي في القرون المتوسطة ». اه.

ورياضها ، ومدنها وعمرانها . يتغنى بها الوشّاح اكثر مما يتغنى بمحبوبه . فهي الحبيب المالك عليه شغاف قلبه ، المستولي على جميع احساسه ، يروقه منظر الزهر والبليل عند الصباح ، وتشرقه بهجات الوانه . ويملأ فؤاده عبيره ، ويخلبه الماء المنساب في الجداول والانهر . وتطربه الاطيار تغرّد على غصون الشجر . وكل صورة من صور الطبيعة عنده شاعرة حساسة ، يغوص على طبائعها ، ويستشف دخائلها ، ويتبين سرورهـا والمها . فاذا بابن الخطيب يقول :

ايُّ شيء لامرئ قد خلصا ، فيكونَ الروضُ قد مُكّن فيهْ
تنهب الازهارُ منه الفرصا ، أمنت من مكره ما تتقيهْ
فاذا الماء تناجي والحصى ، وخلا كل خليل باخيهْ
تُبصرُ الوردَ غيورًا يرمـا ، يكتني من غيظه ما يكتفي
وترى الآس لبيبًا فَهِما ، يسرق السمعَ باذني فرس

ويقول ابن زَمرَك متشوّقًا الى غرناطة ، وكان بعيدًا عنها :

نسيمُ غرناطةٍ طيلْ ، لكنه يُبرئ العليلْ
وروضها زهره بليل ، ورشفه ينقع الغليلْ
متى بنجدٍ ربى المصلّى ، مباكرًا روضَه ، الغمامْ
فجنته كلما استهلّا ، يبتسم الزهر في الكمامْ
والروضُ بالحسن قد تجلّى ، وجرّد النهرُ من حسامْ

واليك المدح كيف تظهر فيه الطبيعة كل الظهور . قال ابن زمرك يهنئ السلطان ابن الاحمر بشفائه :

قد انعم اللهُ بالشفاء ، واستكملت راحةُ الانامْ
فانتطق الطيرُ بالثناء ، وليضحك الزهرُ في الكمامْ
وجودُه بهجة الوجودْ وبرؤه راحة النفوسْ
قد لاح في مَرقَب السعودْ واستبشرت اوجه الشموسْ
فالدوحُ يومي الى السجودْ اكمامه حفّت الرؤوسْ

ومعاني المرشحات لطيفة سائغة كاغراضها ، ناعمة الخيال ، مشرقة الصور لامتزاجها بصور الطبيعة الناعمة والوانها . الا انها مكرورة معادة ، طافية غير بعيدة الغور . وقلما وقعت على معنى يسترقفك ببراعته ، وعمق صورته . وانما انت تؤخذ على الاكثر برقة الالفاظ وحسن موسيقاها ، ولطف ما فيها من الاساليب

البيانية المختلفة الوجوه . فيلهيك هـذا الجمال الخارجي عما في داخلها من معانٍ تافهة او مبتذلة . وربما رأيت فيها غموضاً مع خفتها وقرب متناولها لغلبة الصناعة اللفظية عليها ، كما في موشحة لسان الدين بن الخطيب حين يقول :

وروى النعمانُ عن ماء السما كيف يروي مالكٌ عن أنَس (١

او لحب الاغراب ، وسقم التعبير ، وضيق الالفاظ عن ايضاح المعنى . كقول ابن الخطيب ايضاً :

ايُّ شيء لامرىء قد خلصا ، فيكون الروض قد مُكّن فيه (٢

وقد تقرأ الموشحة فلا تجد ارتباطاً في معانيها ، ولا تختلف في نظرك عن تلك الاغاني الشعبية التي تسمعها في زماننا ، فتطربك بالحانها دون ان تأبه لما فيها من سخف المعنى وتفكك والخلال . فهذه موشحة ابي بكر بن زُهر من اشهر الموشحات ، تقرأها فتلذ لك صورها والوانها ، وما فيها من الفاظ الحب والخمر والطبيعة فاذا تدبرت معانيها لم تقع على شيء حقيق باللذة والاستمتاع ، وانما هي قطعة صالحة للغناء :

ما للسوكة ، من سكره لا يُفيق ، يا لَه سكرانْ
من غير خمرْ ، ما للكئيب المشوق ، يندب الاوطانْ

***

هل تُستادْ ، ايامنا بالمليحْ ، وليالينا
او يُستنادْ ، من النسيم الاريحْ ، مسكُ دارينا
اوهل يكادْ ، حسنُ المكان البهيج أن يجيبنا

---

١) النعمان : ملك الحيرة ابن المنذر اللخمي . والمراد هنا شقائق النعمان . ماء السماء : ام المنذر اللخمي ، وجدة النعمان . والمراد هنا المطر . مالك : امام المدينة ، واحد الائمة الاربعة . أنس : والده . يقول : ان زهر الشقائق روى لنا عن والده المطر كيف كان يروي مالك عن والده انس رواية صدق . وصدق رواية الشقيق عن المطر بادية في ازهاره وحسن منظره . وفي المصراع الاول توريتان ظاهرتان .

٢) خلص : صفا . الظاهر من معناه انه لو صفا شيء لمخلوق لتمكن الروض من الحصول على هذا الصفاء لانه احق به من سواه . وقوله مكّن فيه اي مُكن منه . ومن معاني في ان تكون مرادفة لمن .

وكذلك موشحة ابن الخطيب ، وهي اسير الموشحات ، واخلدها ذكرًا ، اذا حبست نفسك عن الاستسلام الى موسيقاها ، والافتتان بصورها البيانية والوانها ، وغصت على معانيها تقتضاها في مواطنها ، رأيت انك امام اوصاف عادية متداولة ، ومعانٍ متعارفة مبتذلة . فكأن الوشّاح الاندلسي جعل همّه في اخراج موشّح لطيف سائغ يصلح للغناء ، لا يعنيه ان يكون فيه معنى مبتكر او معنى دقيق . فالموشحات لم تخلق لارضاء التفكير وتغذية الذهن ، وانما خلقت لاثارة الخيال والعاطفة ، وابهاج النفس والعين والاذن .

لغتها

كانت لغة الشعر التقليدي في الاندلس ضعيفة بالاضافة الى لغة الشعر العباسي ، فجاءت لغة الموشّحات اللين واضعف ، فهي فنّ استعرب ولم يكن عربيًّا ، وابتدع ولم يكن تقليديًّا : ووجد من اجل الغناء ، والغناء يتطلب الالفاظ السهلة السمحة ، والتعابير اللطيفة اللينة ، وهذه تقود غالبًا الى الضعف والركاكة لطواعيتها ، وائتلافها بمبتذلات العامة . وزادها فسادًا ما اشترط في خرجاتها ان تكون عامية التعبير ، فاجترأ الوشّاحون على التساهل اللغوي في غير الخرجة . كقول بعضهم :

يا غالي حقًّا يكفيك ما القى
أفنتني عشقا
برحمتي عيناك اما كفاك !

وافرطوا في استعمال المجاز على انواعه ، فحفلت موشّحاتهم بشتى الكنايات والتشابيه والاستعارات ، وافتنوا باوجه البديع ، والتزموه التزامًا لا لتحسين المعنى ، وانما لتحسين اللفظ وترشيقه . فابن الخطيب كان له مندوحة عن قوله :

وروى الظمآن عن ماء السما كيف يروي مالك عن انس

ولكن الثورية قادته الى هذا التلاعب بمباني الالفاظ . ولم يكن لاقحام مالك بن انس من داعٍ لولا قوله : وروى ، فالرواية تعني الحديث ، ومالك محدث عظيم .

وهذه الاشياء وامثالها كثيرة في الموشحات ، وهي التي اورثت بعضها غموضاً على سهولة الفاظها ورقتها .

والموشحات الفاظ وتعابير خاصة لا تكاد تختلف في ذكر الطبيعة والخمر والحبيب ، فيها كثير من السماء وشموسها وغمامها ، وفيها كثير من الارض ورياضها وانهارها . ولها وقع جميل في النفس ، وان خلت من المعاني البارعة . ومن الالفاظ التي يكاد يتفق عليها الوشاحون ، وكان لها حظ غير قليل في الشعر الاندلسي لفظة الاقتراح وما يتفرع منها :

ليلى أزَيْنَ الملاح ليلى عليك اقتراحي

تأثيرها

كان لظهور الموشحات اثر بليغ في الشعر والشعراء ، لان اعتمادها على الغناء جعلها تطير على افواه المغنين . ويتلقفها الناس من كل صوب ، ويحفظونها ويتناقلونها ، حتى غلبت على الشعر ، واحتلت مكانه ، واصبح الملوك يأنسون بها في مدائحهم ويطربون الى سماعها ، ويجيزون عليها كما يجيزون على القصائد . وبلغ من شغف الشعراء بها انه ما اشتهرت موشحة ، وتداولتها الالسن ، الا انبرى جماعة منهم الى معارضتها . فقد نظم ابن سهل موشحته التي اولها :

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلبَ صبٍّ ، حلّه عن مكنسِ
فهو في حَرّ وخفقٍ ، مثلما لعبت ريح الصَبا بالقبسِ

فغنى فيها المغنون ، وتحدث بها الناس . فانبرى لسان الدين بن الخطيب يعارضها بموشحته : « جادك الغيث . . . » فسارت كل مسير ، وحجبت موشحة ابن سهل ، ورويت لها عدة معارضات قصرت عنها في المضمار .

ولم تنحصر الموشحات في الاندلس ، بل جاوزت بحر الزقاق الى المغرب والمشرق ، فنظم فيها المغاربة والمشارقة ولكنهم لم يبلغوا شأو الاندلسيين ، الا ابن سناء الملك المصري ، فان له موشحة شرقت وغربت ، وهي التي يقول في اولها :

كللي ، يا سحب تيجان الربى بالحُلي

على ان هذا الفن، مع جماله ورشاقته، كان له اثر سيء في الادب اذ قاده الى الانحطاط. قال ابن خلدون: «ولما شاع فن التوشيح في اهل الاندلس، واخذ به الجمهور لسلاسته، وتنميق كلامه، وترصيع اجزائه، نسجت العامة من اهل الامصار على منواله، ونظموا في طريقتهم بلغتهم الحضرية من غير ان يلتزموا فيه اعراباً، واستحدثوه فناً سموه بالزجل. والتزموا النظم فيه على مناحيهم الى هذا العهد.» اه

فاقبال العامة على هذا الفن لسهولته، وحسن مرأاته، انحدر بالشعر الى العامية، فصار الى ساقط القول. غير ان الشعراء المحدثين من اهل زماننا، عادوا به الى الفصحى، ورفعوا منزلته، واعتمدوا عليه في منظوماتهم الطويلة، كما فعل سليمان البستاني في الياذة هوميروس، واحمد شوقي في قصصه التمثيلية.

والموشح اذا روعيت فيه الفصاحة، والاوزان الشعرية، شائق فتان، للطفه وحسن مساغه. فهو شعر الحب والطبيعة والجمال والفن، وشعر القصائد الطويلة التي لا يضيق عليها اختناق وزن واحد، وقافية واحدة. وهو فتح مبين في الادب العربي، يعود الفضل فيه الى الاندلس، واهل الاندلس.